أمتي في العالم

"غزة بين الحصار والعدوان:

قراءة في الدلالات الحضارية"، العدد التاسع، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠ م

لقد أفرد هذا العدد من تقرير أمتي في العالم (المهتم بقضايا العالم الإسلامي) لتناول العدوان الإسرائيلي على غزة في أواخر ٢٠٠٨ وأوائل ٢٠٠٩، وهذا باعتباره _كما جاء في المقدمة_ ليس بالحدث العابر وإنما هو الحدث الكاشف عن أوضاع الأمة الإسلامية والعربية وموقعها في النظام الدولي، حيث الوعي بأن العدوان هو حلقة في مسلسل الحصار الإسرائيلي الممتد، فضلاً عن إدراك أن الأبعاد الحضارية والثقافية غير بعيدة عن هذا المشهد. وقد انقسم التقرير إلى افتتاحية وأربعة أقسام إلى جانب الخاتمة.

أما الافتتاحية، فقد أطلق فيها المستشار "طارق البشري" على هذا العدوان "الحرب الثانية عشر"، فهكذا ترتيبه في مسار الحروب التي شهدتها المنطقة منذ عام ١٩٤٨ حيث الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فهو يراها حرب واحدة أمام عدو استراتيجي واحد. وبالتالي، يؤكد أهمية الشام بالنسبة إلى مصر مستدلاً بالتاريخ. وهو ينتقل إلى تأكيد أهمية حركات المقاومة الشعبية ليصل إلى المقاومة الفلسطينية متتبعًا تطورها في ضوء إشكالية الداخل والخارج.

ويركز القسم الأول على عالم الأفكار المرتبطة بالموضوع، فيتحدث د.سيف عبد الفتاح عن أهمية تحديد المعاني والمفاهيم فالمقاومة هي عملية حضارية واستراتيجية ممتدة، هذا إلى جانب لفته إلى ما يُثار حول التباس معنى الإرهاب وغيره. كذلك، نبه إلى أهمية استيعاب النماذج التاريخية، وما تعنيه حضارية الصراع من وعي وسعي.

وقدمت د.نادية مصطفى قراءة من منظور حضاري في مشاهد أربعة من العدوان. فكان المشهد الأول هو المظاهرات الشعبية، حيث بدا واضحًا تزايد الحاجز النفسي إزاء إسرائيل. أما مشهد النظم العربية الرسمية، فقد رأته انعكاسًا لتغييرات متراكمة في خريطة صراعات المنطقة برمتها، ناهيك عن تغيرات الداخل الفلسطيني. وبالنسبة إلى مشهد المقاومة في غزة، رأت كيف أن خيارًا المقاومة والتسوية قد وصلا إلى التضاد بدلاً من أن يتكافلا نتيجة فشل النظام العربي في بناء عناصر القوة الحضارية الشاملة مؤكدة اختلاف نمط حسابات حركات المقاومة. ومن هنا، فبعد تناولها المشهد المتعلق بأركان الأمة الثلاثة (تركيا–إيران–مصر)، وما يرتبط به من دلالات الأبعاد الحضارية وحسابات المصالح الوطنية، دعت إلى أن الوضع القائم مع كامل الوعي بخرائطه يتطلب رؤية استراتيجية للمقاومة الحضارية الشاملة تتوزع فيها الأدوار بين هذه الأركان.

ثم كان النظر إلى العدوان من مداخل متنوعة، فمن مدخل قانوني، أكد د.محمد شوقي إعطاء جميع المنظمات الدولية الحق لمنظمات التحرير في المقاومة وأن مبادئ الدفاع الشرعي

في القانون الدولي لا تكون إلا في مواجهة عدوان وليس دفاعًا ضد دفاع، أي أنه لا شرعية للعدوان الإسرائيلي. ومن مدخل عسكري، يرى العميد صفوت الزيات أن أهداف إسرائيل من عدوانها كانت ضبابية ولم تحقق، أيضًا رفض ما قيل بشأن استعادة إسرائيل قوتها الردعية. ومن مدخل سياسي، كان تناول د.مصطفى علوي في ضوء القيود الإقليمية والدولية. فمن أهم ما كشفت عنه هذه الأزمة ذلك الانقسام العربي غير المسبوق الذي ما كان ليحدث لولا الانقسام الفلسطيني الداخلي، ما أدى في رأيه إلى اختزال القضية الفلسطينية في غزة. كما أشار إلى استمرار الاستراتيجية الأمريكية في عهد "أوباما" في حماية إسرائيل. ومن مدخل حضاري، تحدث د.سيف عن عدة أمور يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند قراءة الحدث حيث، أهمية الأبعاد القيمية والثقافية، الرؤية الكلية.

أما الأقسام الثلاثة الأخرى التي شارك فيها مجموعة من الباحثين، جاءت كالآتي: خصص القسم الثاني لعالم الأحداث، إذ رصدت مواقف الأطراف المختلفة على المستويات الرسمية وغير الرسمية على مر مراحل الأزمة. فكان تناول الدلالات الحضارية في خطابات فصائل المقاومة فتم تتبع مقومات المقاومة (العقائدية، الفكرية، الاستراتيجية)، وكذلك الآليات (العسكرية، الإعلامية، التأييد الشعبي).

أيضًا، كان تناول مواقف كل من السلطة الفلسطينية وفتح، وقد لوحظ بالتأكيد رفض العدوان إلا أن ذلك لم يحل دون استمرار حرب الشرعية بين "فتح" و"حماس" وإن ظلت أصوات تنادي بالوحدة. أما عرب ٤٨، فقد بدت نمؤشرات تبرهن شعورهم بهويتهم حيث خرجوا في تظاهرات هي الأكبر منذ نكبة ١٩٤٨.

وعلى الجانب الإسرائيلي، فقد رصدت الأهداف الإسرائيلية من العدوان، وكذلك تطور الخطاب الرسمي حوله حيث الانتقال من التوافق التام إلى الخلافات وما أدت إليه، هذا إضافة إلى تناول المواقف الحزبية التي لم تختلف على العدوان، كما كشف النظر في اتجاهات الصحف والرأي العام التأييد الجارف للعدوان على نحوٍ عكس تصاعد المكون الصهيوني. ذلك بجانب الوقوف على تداعيات العدوان السياسية والأمنية والعسكرية في الداخل الإسرائيلي. يرتبط بذلك ما كان من تناول للأبعاد الدينية للصراعات الحضارية بالتمثيل على الصراع العربي الإسرائيلي، وهذا من خلال تتبع الحركة الصهيونية وموقف الغرب منها.

وفيما يخص الدائرة العربية، فبالنسبة إلى موقف مصر، كان التطرق إلى القضايا التي كانت محل جدل في هذا الإطار كمسألة الدور الإقليمي المصري والمعابر، إضافة إلى تناول أهم الإجراءات التي اتخذتها مصر أثناء الحرب والمحددات الداخلية والإقليمية والدولية ذات الصلة.

أما الموقف السعودي، فكذلك تنوولت المحددات المؤثرة فيه كانهيار اتفاق مكة والمخاوف من توظيف إيران لهذه الحرب، وعلى إثر هذا تتبعت المراحل التي مر بها. وقد كانت الفتاوى أهم ملامح الموقف غير الرسمي التي رصدت. وبالنسبة إلى دول الشام، وجد أن ثمة تفاعلات إيجابية وسلبية لم تختلف في سوريا عنها في لبنان والأردن، فضلاً عن تشابه الموقف الشعبي. وعن العراق، فوُصِف موقفه الرسمي بالضعف ما أرجع إلى السياسة الخارجية التي تعبر عن ضعف السلطة المركزية، الأوضاع التي تدفع المواطن العراقي بدوره للانصراف لشؤونه الداخلية. أما دول المغرب العربي، فعلى سبيل المثال وصف الموقف الليبي بالحدة، كما لوحظ قوة الموقف المجتمعي التونسي.

وإذا انتقلنا إلى الدائرة الإسلامية، نجد الموقف التركي الذي برز فيه البعد القيمي ومثل أحد العلامات الفاصلة في السياسة الخارجية التركية، فكان تناول التساؤلات حول ما إذا كانت تركيا تملك مقومات قوة إقليمية، وكذلك مستقبل استراتيجية التوازن التركية. أما إيران، فقد تم التوصل إلى أنه مع قوة الخطاب وبروز الأبعاد الحضارية به لم يحدث أثرًا كنظيره التركي، حيث الأوضاع الإقليمية والدولية الخاصة بإيران، بل والداخلية أيضًا، إذ فرض مناخ الاستعداد للانتخابات الرئاسية معطياته.

وبالنسبة إلى باكستان وأفغانستان ودول آسيا الوسطى، فقد كان البعد الحضاري واضحًا لدى شعوب هذه الدول، حيث التأكيد على التضامن مع غزة. بينما كشفت المواقف الرسمية الضعيفة عن ابتعاد هذه الدول عن الدائرة الإسلامية فعليًا في مقابل علاقات وثيقة مع إسرائيل والولايات المتحدة، كذلك كشف موقف أفريقيا غير العربية على المستويات الرسمية والشعبية على السواء عن تدني الاهتمام بالقضية الفلسطينية ما تم إرجاعه إلى المشكلات الداخلية للقارة وتدهور العلاقات العربية –الأفريقية.

وعلى جانب آخر، عبرت مواقف الأقليات المسلمة عن بداية تحولات إيجابية تشهدها هذه الأقليات من أهم مظاهرها مأسسة الغضب، وتراجع الخلافات ذات الطبيعة الإثنية داخلها، كما أعاد العدوان طرح السؤال المتعلق بسياسات الاندماج الغربية والنظر إلى الإسلام كدين لمجموعة من المهاجرين لا المواطنين.

وعن الغرب والقوى الكبرى، فوجد أن تعامل الإدارة الأمريكية قد استند إلى رؤية قاصرة إذ ركزت تصورات التسوية على إعادة الإعمار، وبالتالي التسكين المؤقت للصراع وكذلك بالنسبة إلى الأوساط الفكرية وإن اتسمت عامة بالتنوع، كما بدا أن إحداث تغيير في الموقف الشعبي المساند لإسرائيل أمر يشوبه الكثير من الصعوبات. وعليه، كانت الدعوة إلى التعامل مع الموقف الأمريكي في إطار الرؤى كلية الخاصة بالمصالح الأمريكية بالمنطقة وموقع إسرائيل منها، وحدة الانفراج أو التشدد من إدارة لأخرى.

وأوربيًا، في واحدة من أهم تداعيات عدم تبلور رؤية أوربية موحدة، جاء موقف الاتحاد الأوروبي في حالة من الفوضى، إذ عملت كل من دولة بشكلٍ منفرد، وقد اتجهت الأمور بشكلٍ كبير إلى تحميل "حماس" المسئولية. أما شعبيًا، فكان هناك مظاهرات كثيفة تراجعت تدريجيًا مع وقف إطلاق النار. وبالنسبة إلى مواقف قوى الشرق الكبرى والأطراف الصاعدة، لوحظ نجاح الولايات المتحدة وإسرائيل في بناء تحالفات مع هذه الدول التي ازدادت براجماتيتها في التعامل مع العدوان باستثناء فنزويلا التي عبرت عن قيمة إنسانية عالية، أما البرازيل فقد مثلت حضور القطبين (القيمية والحسابية) ولكن على نحوٍ خامل.

وكان عالم المؤسسات محور القسم الثالث. وعن المؤسسات السياسية والاستراتيجية الدولية، فإنه تم التأكيد على إخفاق مؤسستي منظمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية في دوريهما، في مقابل رؤية إيجابية لموقف الأمم المتحدة، وإن وصف مجلس الأمن بأنه ساحة تنفرد بها القوى الكبرى. أما عن المؤسسات الدينية الإسلامية، فكان استخلاص عدة أنماط من تفاعلاتها مع الحرب تعبر عن العلاقة بين الديني والسياسي، مثل: تعضيد الديني للسياسي (في إطار ما يُسمى محور الممانعة)، تلاقي رغبة الجانبين في القيام بدورٍ ما. وقد اجتمعت الطوائف المسيحية على التنديد بالحرب، كما نشطت في جمع التبرعات والإغاثة. وفيما يتعلق بدور المؤسسات المدنية (الحقوقية، الإغاثية، النقابات)، ومع التأكيد على أهمية دور حجميع هذه المؤسسات، إلا أنه لوحظ زيادة دور النقابات والاتحاد النوعية بشكلٍ كبير، إضافة إلى تفاوت مواقف الدول حيالها.

أيضًا، تم رصد اتجاهات الرأي العام والمظاهرات على مستوى العالم، وقد تبين تزايد المظاهرات برتيرة لم تشهد بعض الدول مثلها كالمغرب، أما تدني ردود الفعل الشعبية الأمريكية مرجعها قوة تأثير اللوبي الصهيوني. هذا، إضافة إلى اتجاهات الخطاب الإعلامي وقد رصدت مواقف التيارات الفكرية من بعض القضايا التي كانت محل تجاذب في تلك الفترة مثل: الموقف من مصر، المقاومة، حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية، تقييم نتائج العدوان، سياسة المحاور.

واقتصاديًا، تم التطرق إلى الخسائر الفلسطينية جراء الحرب في البنية التحتية والقطاعات الاقتصادية المختلفة، ومن أهم ما طرح من إشكاليات في هذا الصدد إشكالية العلاقة بين الاقتصادي والسياسي.

وخصص القسم الرابع لتناول قضايا ما بعد العدوان، حيث إعادة الإعمار والجهود المختلفة، وقد كان من أهم التحديات التسييس من أطرافٍ عدة في الخارج والداخل. كذلك، تم تناول الحوار الفلسطيني–الفلسطيني الذي صار ضرورة بعد العدوان، وهذا عبر استعراض المواقف المختلفة مع التركيز على الدور المصري. إذ هناك تأكيد على أن هذه المسألة لم تعد شأنًا داخليًا، فهو يتداخل مع مصالح عربية وإسلامية ودولية، كما أن هناك حرص إسرائيلي–أمريكي على تعميق الخلاف.

وفيما يتعلق بمستقبل مبادرة السلام العربية، فهناك تأكيد على أنها تواجه عقبات وإن كانت مازالت تشكل عنصر ضغط –ولو شكلي– على إسرائيل، إلا أن تفعليها يتطلب استخدام العرب ما بحوزتهم من أوراق قوة اقتصادية وسياسية.

وقد تُطُرق إلى أثر مجئ "أوباما" و"نتنياهو" على القضية الفلسطينية، إذ وجد أن الأوضاع الداخلية الأمريكية والإسرائيلية غير مواتية لممارسة الأولى ضغوط على الثانية لتنفيذ التزاماتها، كما أن خطاب الجانبين به مساحة مشتركة واسعة، وهذا كالتمسك بمبدأ يهودية إسرائيل الذي يعني ضياع حق العودة للفلسطينيين.

أما الخاتمة "ماذا بعد عام من العدوان"، ففيها رأى د.مصطفى علوي أن شيء لم يتغير فالتوجه اليمني الإسرائيلي يزداد والداخل الفلسطيني باق على صراعه، إضافة إلى الوضع الحرج في غزة ومخططات إسرائيل لتوطين أهلها في سيناء، هذه العوامل التي تؤخذ في الاعتبار لتشكيل استراتيجية الأمن القومي المصرية. وهو يؤكد دور مصر على المستويين العسكري والسياسي، حيث مبادرة إنهاء العدوان ودعم الحوار الفلسطيني.

أما د.حسن نافعة، فيُشدد على الأهمية الجيواستراتيجية لغزة بالنسبة للأمن الوطني المصري، مؤكدًا أن القضية الفلسطينية هي قضية مصرية منذ اللحظة الأولى للصراع.

شيماء بهاء الدين